وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

عوامل بناء حضارات الأمم في ضوء هدايات سورة الروم

(دراسة موضوعية)

اسم الباحث/ـة

د/ رائد بن محمد آل كحلان الغامدي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

أما بعد:

فإنه لا يخفى على أهل العلم بالله وبكتابه أن من مقاصد القرآن الكبرى –إن لم يكن هو المقصد الأعظم– هو هداية المُكلفين إلى ما فيه سعادتهم وصلاح أمر معاشهم ومعادهم، ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣]، ومما تشتدّ حاجة البشرية إلى الهدى القرآني في بيانها: قضية حضارات الأمم، وعوامل بنائها وسقوطها، ومعايير اعتبار تلك العوامل، وقد رحم الله الناس بالبيان القرآني فيها، وإقامة الدلائل والبراهين عليها، وتأتي الهداية القرآنية في هذه القضية حاضرة بقوة في ثنايا "سورة الروم"؛ ولذا جاء اختيار هذا الموضوع إبرازًا لهذه الهداية من خلال التتبع الموضوعي لمفاصل هذه القضية في إطار المقصد العام الذي جاءت السورة لبيانه، راجيًا من المولى سبحانه الفتح والمدد والهدى والسداد

وسيكون تناول هذا الموضوع عبر الخطة الآتية:

التمهيد: وفيه مبحثان:

الأول: (ماهية الحضارة). وفيه التعريج بإيجاز على محددات هذا المصطلح في ضوء المفهوم القرآني.

الثاني: (لماذا سورة الروم). وفيه بيان عليّة اختيار "سورة الروم" لإبراز هذه الهداية في ضوء ما يُسمى بـ" علوم السورة" ومقصدها العام.

الفصل الأول: عوامل البناء.

المبحث الأول: العوامل الرئيسة.

المبحث الثاني: العوامل المتفرعة.

الفصل الثاني: عوامل السقوط.

المبحث الأول: العوامل الرئيسة.

المبحث الثاني: العوامل المتفرعة.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج.

تمهيد:

المبحث الأول: ماهية الحضارة:

مما لا يخفى أن لفظ[١] "الحضارة" بات من أكثر الألفاظ تداولًا وشيوعًا في هذا العصر، بل صار هذا اللفظ أيقونة معياريةً أو قالبًا قياسيًا تُقاس به أهمية أمرٍ أو رُقيّه أو كونه مشتركًا إنسانيًا متفق على علو قيمته وجلالة قدره، فيُقال: أمة حضارية، أو تديّن حضاري، أو سلوك حضاري، ونحو ذلك..

ومن نافلة القول في هذا التعريف الموجز أن نخوض في الأصل اللغوي لهذه اللفظة باستعمالاتها المتعددة التي لا لن يخرج المفهوم الاصطلاحي عن واحد منها، ومن ذلك: الحضور والشهود والقرب والورود[٢].

أما مفهوم لفظ "الحضارة" بمعناه المعاصر المتداول، فقد لحقه البُعد وطالته الغُربة عن المفهوم القرآني؛ كون تداوله صادرًا عن اصطلاح حادث دخيل على المفاهيم القرآنية[٣]، وهو ما تجيء هذه الدراسة للإسهام في تصحيحه وفق

---

(١) ولا أقول "مصطلح"؛ لأن من مقتضيات كونه مصطلحًا أن يكون متفقًا على ماهيته، ولكن لا يزال الاختلاف قائمًا في تحديده كما لا يخفى.

(٢) انظر: العين المنسوب للخليل (١٠١/٣)، الصحاح للجوهري (٦٣٢/٢)، مقاييس اللغة لابن فارس (٧٥/٢).

(٣) ومن ذلك اختزال مفهوم الحضارة فيما يسمى بـ"العمران البشري" كما قرره ابن خلدون، و كلمة العمران وإن كانت موجودة في القرآن الكريم بمعنى الاجتماع الإنساني كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩]، إلا أنها مظهر من مظاهر الحضارة وليست هي الحضارة بعينها. انظر: أخطاء المؤرخ ابن خلدون في كتابه المقدمة لخالد كبير علال (٢٧٦-٢٨٥). ثم اختُزل معنى الحضارة أيضًا في العصر الحديث بـ"التقدم"، أو "الرقيّ"، أو "المدنيّة" المبني على تحسين وسائل العيش والرفاهية الجسدية أو سيادة النظم الوضعية المنظمة للمجتمعات، بينما الحضارة في المفهوم الإسلامي هي أعم من ذلك، وما "المدنية" إلا مظهر أو نتيجة لوجود الهوية القائمة على القيم

الهداية القرآنية من خلال مفاصل هذا البحث.

ويمكن إجماله هنا: بأن الحضارة هي: منظومة قِيَمِيَّة مُستمدة من الوحي تأخذ بيد الإنسان إلى سعادته الروحية الدنيوية والأخروية، مثمرةً لرضوان الله تعالى.

المبحث الثاني: لماذا سورة الروم؟

عند الإطلالة على هذه السورة من خلال علومها(١)، نجد أنها سورة تنزلت في العهد المكي بالاتفاق(٢)، فلها خصائص القرآن المكي من حيث الموضوعات التي يعالجها، ومن ذلك بناء المفاهيم والتصورات الصحيحة عن الله تعالى والكون والحياة واليوم الآخر، وهي مجموعة المفاهيم التي تنبثق منها القيم الحضارية التي ستقوم على أساسها الدولة الإسلامية فيما بعد؛ لا سيما إذا علمنا أن نزولها بالتحديد في أواخر العهد المكي، واتضحت نبوءتها التي ابتدأت بها بالإخبار بغلبة الروم في بواكير العهد المدني(٣) لتدل المسلمين إذ ذاك على عوامل بناء الحضارة وفق المنظور القرآني.

والمتأمل في موضوعات السورة التي جاء في خواتيمها: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨] أي: تتبين به الحقائق وتنقطع به

والمقومات والعوامل التي تُستمد من الوحي، وليس مجرد الواقعَ الماديَّ كما هو الحال في المناهج الغربية.

(١) أعني بعلوم السورة هي مباحث علوم القرآن المختصة بالسورة القرآنية قبل الولوج في ثنايا آياتها، مثل اسم السور، وعدد آياتها، وسبب نزولها -إن وُجد-، ومكان ووقت نزولها (المكي والمدني)، وعدد آياتها، وفضلها، ومقصدها العام وأغراضها..

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية، وقال: "ولا خلاف أحفظه في ذلك" (٣٢٧/٤)، وزاد المسير لابن الجوزي، وقال: "وهي مكّيّة كلّها بإجماعهم" (٤١٥/٣).

(٣) ذهب بعض العلماء إلى أن الخبر جاء بظهور الروم على فارس يوم بدر، وذهب آخرون أنه يوم الحديبية وهو ما صححه شيخ الإسلام ابن تيمية. انظر تفسيره الذي جمعه إياد القيسي (١١٨/٥).

الحجة[١]، يجد أن الحديث عن الغلبة[٢]، والنصر[٣]، والوعد والتبشير به، والصبر حتى مجيء هذا الموعود الحق[٤]، قد جرى في ابتدائها وأثنائها وختامها! فكأن هذه القضية بمثابة الخيط الناظم لموضوعات السورة، وغير خفي أن قضية الغلبة والانتصار هي أبرز سمات الأمة المالكة لمقومات الحضارة والقوة والسيادة، وعامل مؤثر في تكوين الحضارة وتصديرها[٥]، فابتداء السورة بذلك بمثابة الإعلان عما تشتمل عليه السورة من الحديث عن عوامل هذه القضية بناءً وسقوطًا. "فتأمل هذا المعنى الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يترجّاه من ظهور دينه وشرع الله الذي بعثه به، وغلبته على الأمم"[٦].

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٢٨/١٨)، تفسير ابن عطية (٣٤٤/٤)، تفسير القرطبي (٤٩/١٤)، تفسير ابن كثير (٣٢٨/٦)، تفسير الشوكاني (٢٦٨/٤)، تفسير السعدي (ص: ٦٤٥).

(٢) ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ .. ﴿ غَلَبِهِمۡ ﴾ .. ﴿ سَيَغۡلِبُونَ ﴾.

(٣) ﴿ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ .. ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ .. ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ .. ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

(٤) وتناسبت فواتح السورة مع خواتيمها، في ابتدائها بالحديث عن وعد الله بغلبة الروم: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ .. إلى قوله: ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ ﴾.. وفي خاتمتها: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾. انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٣٩/١٥).

(٥) انظر: المقدمة لابن خلدون، وقال هناك: "التغلب هو الملك". (٢٤٤/١).

(٦) المحرر الوجيز (٣٢٨/٤) بتصرف يسير.

الفصل الأول: عوامل البناء

نزلت فواتح سورة الروم حين غلب ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم، حتى ألجأ ملك الروم إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الروم للانتصار في بضع سنين. وجاء عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الروم: ١-٣] قال: "كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب(١).

ومحبة المسلمين لانتصار قوم أهل كتاب، لهم "دين صحيح الأصل"(٢)،

هو محبة لانتصار حضارة حريٌّ بها الانتصار؛ لأن حضارتها ذات قيم سماوية تنبثق منها كل عوامل البناء القوي المُحكم، فكل عوامل البناء التي ذُكرت في السورة إنما يميزها أنها تعاليمُ وحيٍ يُوحَى ﴿ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]، لأنها جاءت من عند خالقٍ ﴿ يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]. في الوقت الذي نجد فيه العوالم التي انقطعت صلتها بتعاليم السماء تتخبط في تيه المقاييس التي تُقاس بها قيمة الحضارات.

المبحث الأول: عوامل البناء الرئيسة

أولًا: العلم والإيمان:

محورية هذا العامل المهم في بناء الأمة الحضارية ظاهرة في ثنايا هذه السورة الكريمة، فالعلم بالله ووعده ووعيده ولقائه وسننه في خلقه

تنادي به السورة في كل جنباتها، وتنعى على الذين ﴿ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦]،

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/٢٩٧).

(٢) كما عبّر بذلك البقاعي في نظم الدرر (١٥/٢).

و﴿ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠]، وهم ﴿ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]، إنما حظهم من العلم ﴿ ظَٰهِرًا ﴾ [الروم: ٧] لا يقيم أود الأمة ولا يرفع لها رأسًا، ولم ﴿ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾ [الروم: ٩] نظرَ المعتبر في كونٍ امتلأ بآياتٍ ﴿ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]، وآياتٍ فُصّلت ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٤]، بل اتبعوا ﴿ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩]، وحين انكشفت لهم –بعد فوات الأوان– زيوف الحضارات الدعيّة، وعور المبادئ الأرضية، وانقشعت عنهم غشاوة الغيوب، وسطعت أنوار حقائق الآخرة: طفق المجرمون على الجهل يُقسمون، بعدما عاينوا حقيقة ما كانوا عنه يؤفكون، فما راعهم إلا حسرة الجهل وندامة فوت العلم حين ينادي عليهم ﴿ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [الروم: ٥٦] نداء التنديم والتحسير: ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٦]، ولا غرو ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٩].

فأول مرتكز لحضارة متينة تنشد الفلاح والسؤدد هو العلم بالله تعالى المورث لخشيته وإقامة أمره، وهو أعلى العلوم، وغاية العلوم، ومنتهى العلوم، وتحقيق العلوم، وأصل العلوم، والحاجة إليه ضروريّة، ولا صلاح للعباد إلا به، ولا سعادة لهم بدونه، ولا استقامة لأمر معاشهم ومعادهم بغيره، فهو أصلٌ لتحقيق تلك العلوم التي به تستحقّ أن تكون علومًا.

أما الذين لا يعلمون إلا ﴿ ظَٰهِرًا ﴾ [الروم: ٧]، ويعدّه الكثير من الناس حضارةً، فلا اعتبار به في منظور الهُدى القرآني، قال ابن عباس ﷺ وغيره من المفسرين في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا ﴾ [الروم: ٧]: "معناه ما فيه الظهور والعلو في الدنيا من إتقان الصناعات والمباني ومظان كسب الأموال والفلاحات ونحو هذا"(١). وحتى لا يتحذلق غافل عن حقيقة العلم فيدّعي أن للغافلين علومًا مُشاهدة،

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية، ونسبه للحسن والجمهور أيضًا (٤/٣٢٩).

فقد أثبت سبحانه لهم العلم لكنه علم قاصر **من وجهين:**

الوجه الأول: أنهم إنما يعلمون ظاهرًا لا باطنًا: ﴿ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [الروم: ٧]، وكم من الأمور الخفية في هذه الحياة لا يعلمها أولئك.

الوجه الثاني: أنه قال سبحانه ﴿ ظَٰهِرٗا ﴾ [الروم: ٧] وليس الظاهر، فلا يعلمون كل ظاهر، فنكّره للتقليل، وأن هناك ظواهرَ أخرى لا يعلمونها(١).

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري (٤٦٨/٣)، حاشية الطيبي على الكشاف (٢١٢/١٢)، تفسير أبي حيان (٣٧٦/٨)، تفسير ابن عاشور (٥١/٢٠)، تفسير ابن عثيمين- سورة الروم (٣٥، ٣٦). وما أحسن ما قرره الشنقيطي في أضواء البيان (١٦٦/٦) بقوله:

"يجِبُ على كُلِّ مُسلمٍ في هذا الزَّمانِ أن يتدَبَّرَ آيةَ «الرومِ» هذه تدَبُّرًا كثيرًا، ويُبَيِّنَ ما دلَّت عليه لكُلِّ مَن استطاع بيانَه له مِنَ النَّاسِ. وإيضاحُ ذلك أنَّ مِن أعظَمِ فِتَنِ آخِرِ الزمانِ الَّتي ابتلى اللهُ بها ضِعافَ العُقولِ مِن المسلِمينَ شِدَّةَ إتقانِ الإفرنجِ لأعمالِ الحياةِ الدُّنيا، ومهارتَهم فيها على كَثرتِها واختلافِ أنواعِها، مع عَجزِ المسلِمينَ عن ذلك! فظنُّوا أنَّ مَن قَدَر على تلك الأعمالِ أنَّه على الحَقِّ، وأنَّ مَن عجَزَ عنها متخَلِّفٌ، وليس على الحَقِّ! وهذا جَهلٌ فاحِشٌ، وغَلَطٌ فادِحٌ! وفي هذه الآيةِ الكريمةِ إيضاحٌ لهذه الفِتنةِ، وتخفيفٌ لشأنِها، أنزَلَه اللهُ في كتابِه قبْلَ وُقوعِها بأزمانٍ كثيرةٍ، فسُبْحانَ الحكيمِ الخبيرِ! ما أعلَمَه! وما أعظَمَه! وما أحسَنَ تعليمَه! فقد أوضَح جَلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ، ويَدخُلُ فيهم أصحابُ هذه العلومِ الدُّنيويَّةِ دُخولًا أوَّليًّا؛ فقد نفَى عنهم جلَّ وعلا اسمَ العِلمِ بمعناه الصَّحيحِ الكامِلِ؛ لأنَّهم لا يَعلَمونَ شَيئًا عَمَّن خَلَقَهم، فأبرزَهم مِنَ العَدَمِ إلى الوجودِ ورزَقَهم، وسوف يُميتُهم ثمَّ يُحييهم، ثمَّ يجازيهم على أعمالِهم، ولم يَعلَموا شيئًا عن مَصيرِهم الأخيرِ الَّذي يُقيمونَ فيه إقامةً أبديَّةً في عذابٍ فظيعٍ دائمٍ! ومَن غَفَل عن جميعِ هذا فليس معدودًا مِن جِنسِ مَن يَعلَمُ كما دلَّت عليه الآياتُ القُرآنيَّةُ المذكورةُ، ثمَّ لَمَّا نفَى عنهم جلَّ وعلا اسمَ العِلمِ بمعناه الصَّحيحِ الكامِلِ، أثبَت لهم نوعًا مِن العِلمِ في غايةِ الحقارةِ بالنِّسبةِ إلى غيرِه، وعاب ذلك النَّوعَ المذكورَ مِن العِلمِ بعَيبينِ عَظيمَينِ:

أحدُهما: قِلَّتُه وضِيقُ مجالِه؛ لأنَّه لا يُجاوِزُ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا، والعِلمُ المقصورُ على ظاهرٍ مِن الحياةِ الدُّنيا: في غايةِ الحقارةِ وضِيقِ المجالِ بالنِّسبةِ إلى العِلمِ بخالقِ السَّمَواتِ

ومن أخص ما يجب علمه في بناء الحضارة بالمنظور القرآني: العلم بسنن الله تعالى في الغَلَب والظهور، ففي قوله تعالى: ﴿ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦] مفعول محذوف "دلَّ عليه قولُه: ﴿ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٣، ٤]، والتقدير: لا يعلمون هذا الغَلَبَ القريبَ العجيبَ. ويجوز أن يكون المرادُ تنزيلَ الفعل منزلة اللَّازم؛ بأن نُزِّلوا منزلة مَن لا عِلْمَ عندهم أصلًا؛ لأنَّهم لَمَّا لم يصِلوا إلى إدراك الأمور الدَّقيقة وفهم الدَّلائل القياسيَّةِ، كان ما عندهم مِن بعض العلم شبيهًا بالعدم؛ إذ لم يبلُغوا به الكمالَ الذي بلَغَه الرَّاسخون أهلُ النَّظرِ؛ فيكون في ذلك مبالغة في تَجهيلهم، وهو ممَّا يقتضيه المقام"(١).

وأعقب هذا التجهيل للمكتفين بعلمٍ ظاهرٍ لا يُسمن العقل ولا يغني من جَوْعة الروح أن دعاهم (للتفكر) الذي ما أكثرَ ما دعا إليه القرآن لتحصيل حقائق العلوم، ولا سيما العلم بالله وسننه ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ﴾ [الروم: ٨]، "فالتَّفكُّر في الأنفُسِ وفي خلقِ السَّموات والأرض ونحوِ ذلك يدُلُّ على كمالِ قُدرةِ الصَّانعِ، وكمالُ قدرته دالٌّ على عَظَمته، ومُلاحظةُ عظَمتِه داعٍ إلى طاعته"(٢) وإقامة أمره، وإذا أقامتْ أُمةٌ أمر ربها أقام الله حضارتها.

ومن ثمرات هذا التفكر الذي دعت إليه السورة أن تبني الأمم مفاهيمها وتصوراتها عن الخالق والخلق على أساس هذا العلم الإلهي الحق، وأن تدرك الحكمة في جريان نواميس الكون وسننه، على حجج وبراهين ثابتة، فنجد أن

والأرضِ جَلَّ وعلا، والعِلمِ بأوامِرِه ونواهيه، وبما يُقَرِّبُ عَبْدَه منه، وما يُبعِدُه عنه، وما يُخَلِّدُ في النَّعيمِ الأبَديِّ والعذابِ الأبديِّ مِن أعمالِ الخَيرِ والشَّرِّ.

والثَّاني منهما: هو دناءةُ هَدَفِ ذلك العِلمِ، وعدَمُ نُبلِ غايتِه؛ لأنَّه لا يَتجاوَزُ الحياةَ الدُّنيا، وهي سريعةُ الانقِطاعِ والزَّوالِ".

(١) تفسير ابن عاشور (٢١/٤٩).

(٢) شجرة المعارف والأحوال للعز بن عبد السلام (٨٢).

دعوة التفكر تلتها الآيات من قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾، ثم ما زال يقول سبحانه: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ ..﴾ .. ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ ..﴾ إلى أن ضرب المثل بقوله: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [الروم: ٢٨] في إقامة البرهان على ضلال المشركين واتباع أهوائهم؛ إلى قوله سبحانه: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥]، والسلطان هنا هو الحُجة[١]، كل ذلك لأجل أن تُبنى الحضارة بمفهوم القرآن على تصور قوي مُحكم قائم على الحجة الصحيحة في الخالق والمخلوقات والنفس والآفاق، فلا يطيش عقله في ضلالة يبني عليها حضارة متهالكة سرعان ما يظهر عورها في تصورات خرافية وسلوكيات شاذة وأخلاق مشوهة..

فنجد في هذه الآيات التي ساقها الله تعالى استدلالًا على الحكمة ومطلق القدرة ونفاذ المشيئة: إبطالًا لكل تصورات المشركين في إنكار المعاد، أو هرطقة الفلاسفة في قدم العالم[٢]، أو نظريات الملحدين المعاصرين في النشوء والتطور التي قامت على عروشها ما يسمى بـ"حضارتهم" الغربية المتهالكة[٣]، التي بلغ

---

(١) قال ابن عباس ﷺ: "كل سلطان في القرآن فهو حجة". أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير (٨٢/٦).

(٢) في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ﴾ [الروم: ٢٧] دَلالةٌ على أنَّ الخلقَ حادِثٌ بعد أن لم يكن، فيكون في الآية رَدٌّ لقول الفلاسفةِ القائلين بقِدَم العالَمِ، والصَّوابُ أنَّ العالَمَ حادِث بعد أن لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ﴾ [الروم: ٢٧]. انظر: تفسير ابن عثيمين – سورة الرُّوم (١٥٣).

(٣) في قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الروم: ٢٠] دَلالةٌ على إبطالِ النَّظريةِ الخاطِئةِ «نظريةِ النُّشوءِ والتطُّورِ» الَّتي كان قائدُها «دارْوِن»؛ فهي نظريةٌ خاطِئةٌ وباطِلةٌ بلا شَكٍّ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ يقولُ: أ بي ترَّ ، فيُخاطب البشر باعتباره بشرًا، إذن فهو بشرٌ منذُ أُنشئَ مِن التُّراب إلى اليوم. انظر: تفسير ابن عثيمين – سورة الرُّوم (١٠٤).

من تعاظمها في أنفسهم أن يبحثوا عن حياة في الكواكب الأخرى(١).

وعلى أساس هذا (العلم) الصحيح الراسخ يقوم بناء (الإيمان) القوي الشامخ، وقد جُعلا في هذه السورة قرينين في الأنموذج القرآني للإنسان الحضاري ﴿ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ [الروم: ٥٦] (٢)، وهو الموضع الوحيد في القرآن.

فمما قررته السورة من قضايا الإيمان: إفراد الله تعالى بأفعاله ومطلق تصرفه في خلقه، ووعده الذي لا يُخلف، وتفرده بالأمر من قبل ومن بعد، وتفرده ببدء الخلق وإعادته، وتفرده بالملك، وقيام السماوات والأرض بأمره.. ونحو ذلك من مقتضيات الربوبية(٣).

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٥] دَلالةٌ على أنَّ مَقَرَّ بني آدم الأرض، ويؤيِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴾ [طه: ٥٥]، فالمعمولُ في هذه الآيةِ «فيها» و«منها» مُقَدَّمٌ، وتقديمُ المعمولِ يدُلُّ على الحصر مِن هذا الشَّيء لا مِن غيره، إذن فالحياة على الكواكب متعَذِّرةٌ بالنِّسبةِ لبني آدَمَ، فظاهرُ الآياتِ أنَّ بني آدَمَ خُلِقوا مِن الأرض، ويُرجَعون إلى الأرض، ويُدْعَون يومَ القيامة من الأرض. انظر: تفسير ابن عثيمين – سورة الرُّوم)) (١٤٠).

(٢) وعطَف الإيمانَ على العلمِ للاهتمامِ به؛ لأنَّ العلمَ بدونِ إيمانٍ لا يرشدُ إلى العقائدِ الحقِّ التي بها الفوزُ في الحياةِ الآخرةِ. انظر: تفسير ابن عاشور (١٣١/٢١).

(٣) في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [الروم: ١١] استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو شُروع فيما أُقِيمت عليه هذه السُّورةُ مِن بسْطِ دلائلِ انفراد الله تعالى بالتَّصرُّف في النَّاس؛ بإيجادهم وإعدامهم، وبإمدادِهم وأطْوارِ حياتِهم؛ لإبطالِ أن يكونَ لشُركائهم شَيءٌ مِن التَّصرُّفِ في ذلك؛ فهي دلائل ساطعةٌ على ثُبوتِ الوَحدانيَّةِ الَّتي عَمُوا عنها؛ فقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ استدلال بما لا يَسَعُهم إلا الاعترافُ به، وهو بَدْءُ الخلْقِ؛ إذ لا يُنازِعون في أنَّ اللهَ وحْدَه هو خالقُ الخلْقِ؛ وحسَّنَ مَوقعَ الاستئنافِ وُرودُه بعدَ ذِكْرِ أُمَمٍ غابرةٍ وأُمَمٍ حاضرةٍ خلَفَ بعضُها بعضًا، وإذ كان ذلك مثالًا لإعادة الأشخاص بعد فنائها، وذِكرِ عاقبةِ مصيرِ المكذِّبين للرُّسلِ في العاجلة؛ ناسب في مَقام

وتعرضت لإفراد الله تعالى بالعبادة وإقامة الحجج والبراهين على استحقاقه للعبادة وحده لا شريك الله وإبطال حجج المشركين بإقامة الحجج عليهم وضرب الأمثال لهم(١).

وتناولت أيضًا إفراد الله بصفات الكمال وتنزيه نفسه سبحانه عن الظلم أو عدم الحكمة، وتنزيهه عن شرك المشركين، وحمد نفسه في سائر الأمكنة والزمنة، وأن له المثل الأعلى في السماوات والأرض سبحانه وبحمده.

وجاء فيها قضية الإيمان باليوم الآخر، وهي قضية عميقة الأثر في استقامة المؤمن وبنائه لحضارته على أساس من وازع ذاتي يؤمن بلقاء الله ومجازاته، وأنه مُحضَرٌ(٢) لا محالة، فلن ينتظر قانونًا ليُقَوِّمَه، ولا نظامًا وضعيًا ليضبط سلوكه، بينما الذين ﴿ هُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧] قد توجَّهَت قلوبُهم وأهواؤُهم وإراداتُهم إلى الدُّنيا وشَهَواتِها وحُطامِها، فعملت لها وسَعَتْ، وأقبَلَتْ بها وأدبَرَتْ، وغَفَلتْ عن الآخرةِ؛ فلا الجَنَّةُ تشتاق إليها، ولا النَّارُ تخافها وتخشاها، ولا المقامُ بين يدَيِ الله ولقائِه يُرَوِّعها ويُزعجها، وهذا علامة الشَّقاء،

الاعتبار أن يُقام لهم الاستِدلالُ على إمكانِ البعث؛ لِيقع ذِكْرُ ما يَعقُبُه مِن الجزاءِ مَوقِعَ الإقناعِ لهم. انظر: تفسير ابن عاشور (٢١/٦٠ - ٦١).

(١) ذكَر ابنُ عاشور: أنَّ هذه السُّورةَ اشتمَلَتْ على آياتٍ فصَّلَت دَلائلَ إبطالِ دين الشركِ على أربعةِ استئنافاتٍ مُتماثِلةِ الأُسلوبِ، ابتُدِئَ كلُّ واحدٍ منها باسمِ الجلالة مُجْرًى عليه إخبارٌ عن حقائقَ لا قِبَلَ لهم بدَحْضها؛ لأنَّهم لا يَسَعُهم إلَّا الإقرارُ ببَعضِها أو العجْزُ عن نقْضِ دَليلِها؛ فالاستئناف الأوَّل المبْدوء بقولِه: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [الروم: ١١]، والثَّاني المبْدوء بقولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ [الروم: ٤٠]، والثَّالث المبْدوء بقولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ [الروم: ٤٨] ، والرَّابعُ المبْدوء بقولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ [الروم: ٥٤]. انظر: تفسير ابن عاشور (٢١/٦١).

(٢) يجوزُ أن يكونَ قوله ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم: ١٦] بمعنى: مأْتِيٌّ بهم إلى العذابِ؛ فقد كَثُرَ في القرآنِ استعمالُ (مُحضَرٍ) ونحوِه بمعنى مُعاقَبٍ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٨]. انظر: تفسير ابن عاشور (٢١/٦٤).

وعنوان الغفلة عن الآخرة[1].

فإذا حُشيت قلوب هذه الأمة القرآنية بالإيمان بعظمة هذا الرب العظيم، فكيف لها أن تهاب من دونه، ولا سيما حين يعِدُ في هذه السورة من حمل هذا الإيمان بالنصر لهم، والانتقام من أعدائهم، كيف وقد أضاف هذا الوعد إلى نفسه ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٦، ٦٠][2]

وأكّده بعدم إخلافه ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الروم: ٦]، وجعل نصرتهم حقًّا على نفسه ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]؟!

فيا لقلوب تحمل هذا العلم المتين، ويا لأمة يهيؤها الله في هذه السورة بنور هذا الإيمان واليقين، كيف لها أن لا تكون خليقةً بقيادة العالم وسيادة الأمم، وكيف لا يتحقق لها موعوده الحق بالنصر والغلبة؟! وأنى لها أن يستخفها الذين لا يوقنون؟

هذا، وإنما جاء الإسهاب في هذا العامل؛ لأنه العامل الأساس التي تتفرع عنه بقية العوامل.

ثانيًا: الفطرة

قضايا التوحيد والإيمان التي تناولتها السورة كثيرة ومتشعبة، ولها وثيق الصلة بقيام حضارة المؤمنين على أساس متين من قضايا الإيمان. فهي الدين الحنيف الذي أُمرت الأمم بإقامة الوجه له، والفطرة التي لا تبديل لها ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ [الروم: ٣٠]؛ إذ خلَق جميعَ الناس مُهَيَّئِينَ لِمَعرفتِه وقَبولِه، والتَّصديقِ والإقرارِ بعَقائدِه، والانقيادِ إليه، والعَمَلِ بأحكامِه، وقد جعَل الله

(١) انظر: تفسير السعدي (٦٣٦).

(٢) في إضافةِ الوعْدِ إلى اللهِ: تلْويحٌ بأنَّه وَعدٌ مُحقَّقُ الإيفاءِ؛ لأنَّ وعْدَ الصَّادقِ القادِرِ الغنِيِّ لا مُوجِبَ لإخلافِه. انظر: تفسير ابن عاشور (٢١/٤٨). وكلمة ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ جاءت في بداية السورة في الآية (٦) وفي ختامها وآخر آية منها (٦٠)!

تعاليمَه مُناسِبةً لخِلقتِهم، غيرَ مُخالِفةٍ لها[١]. ومُوافقَتُه الفِطرة يُفيدُ أنَّه دين سَمْحٌ سهْلٌ، لا عنَتَ فيه[٢]. وأقام الدليل سبحانه في هذه السورة على أن توحيده مركوز في فطرة كل إنسان بقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الروم: ٣٣]، وأنَّهم إن غَفَلوا في السَّرَّاءِ، فلا شَكَّ أنَّهم يَلوذون إليه في حالِ الضَّرَّاءِ[٣].

ومما يلحق بالفطرة ما أشارت إليه السورة من إقامة حضارات الأمم على ما فطرهم الله عليه من نظام اجتماعي قائم على ميل ذكر لأنثى بمودة ورحمة مشروعة بينهما، والتناسل بالنكاح وليس بالسفاح، ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].ومما يلحق بعامل الفطرة أن تقوم حضارة الأمم على ما فطرهم الله عليه في أمر معايشهم من منامهم بالليل وعملهم بالنهار ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [الروم: ٢٣].

فإذا تنكبت أمة فطرة الله التي لا تبديل لها، وشذت عن نظام السماء، فلن تقوم إلا على عبادة الشيطان الذي أقسم أن يغير خلق الله.

ثالثًا: العدل:

العدل قيمة كبرى، ومنشود كل الأمم، وتتفاوت النفوس فيه بين صادق ودعي، فيتظاهر بإقامته الأدعياء لا لذاته، وإنما لمصالحهم واستمرار نفوذهم ولأمن تسلط بعضهم على بعض، وحينئذ لن يكون العدل قيمة مطلقة، وإنما قيمة موظفة، يُنتهك سياجها متى ما تعارضت مع مصالح المستبد، وتُذبح

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٩٢/١٨)، تفسير ابن عطية (٣٣٦/٤)، تفسير القرطبي (٢٩/١٤)، تفسير ابن كثير (٣١٣/٦).

(٢) انظر: تفسير ابن عاشور (٨٩/٢١).

(٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي (٩٢/١٥).

مزاعمه على أعتاب المتسلطين.. أما في هذه السورة فتتجلى قيمة العدل غايةً قامت عليها السماوات والأرض وما بينهما، وقيمةً لا تقوم عليه الدول والحضارات فحسب، بل أقامه الله تقدست ذاته على نفسه، وأقام عليه مخلوقاته كلها، وأمر بإقامته بينهم، حتى يقضي للشاة الجلحاء من القرناء. فقال سبحانه في هذه السورة: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الروم: ٨]، قال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري: "إلا بالعدل، وإقامة الحقّ"(١). وإقامة العدل في الأرض وفق أمر الله الشرعي من نعم الله تعالى وآلائه وآياته الداعية للاعتبار، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم: ٢٥] فلا يستقيم أمر أمة بمثل إقامتهم لأمر الله تعالى(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم:٨] تتجلى محورية اليوم الآخر والإيمان بلقاء الله ومجازاته في قيام حضارة الأمم على العدل، فلن يفلح قانون وضعي مهما كان صارمًا في ضبط أخلاق أمة وتقويم سلوكها وإقامة العدل بين أفرادها دون وازع لقاء الله تعالى. فإذا تنكبت أمة منهاج العدل السماوي فلن تقوم لها حضارة إلا حضارة الظلم والاستبداد.

رابعًا: بناء الإنسان:

فمما تقرر في هذه السورة أن الإنسان هو وحدة بناء الحضارة، وليست

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/٧٧).

(٢) القيام هنا يشمل القيام الحسّيَّ والمعنويَّ؛ القيامُ الحسّيُّ: بما فيها مِن الانتظام، وإيداعِها مصالحَ الخَلقِ. والقيام المعنويُّ: لأنَّها تصلح وتقوم بالعمل فيها بطاعة الله، كما أنَّ المعاصيَ إفسادٌ للأرض. قاله ابنُ عثيمين. انظر: تفسير ابن عثيمين – سورة الروم (١٣٧، ١٣٨). وقال أيضًا: "... وعلى هذا يكونُ المرادُ بالأمرِ الأمرَ الكونيَّ، والأمرَ الشَّرعيَّ". تفسير ابن عثيمين – سورة الروم (١٣٨).

الأبنية والصناعات والمنتجات الحضارية إلا مظهرًا من مظاهر بناء الإنسان نفسه.. وعلى ما مضى من عوامل العلم والإيمان والفطرة والعدل يُبنى الإنسان بناءً حضاريًّا وفق المنظور القرآني، بناءً قويًّا من داخله، وليست قوته مجرد مظهر خارجي سرعان ما تنهار حضارته عند تنكب منهج الله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩].

ومما يلحق بعامل (بناء الإنسان) مما أشارت إليه السورة الكريمة:

١. إقامة النظام الاجتماعي على أساس التناسل الفطري الصحيح، وقد سبق ذكر ذلك في عامل الفطرة.

٢. استثمار الفوارق بين أفراد الأمة في اختلاف الألسنة والألوان في بناء حضارتها ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢]. في حين أن بعض الأمم جعلت التعصب للعنصر واللون واللسان مسامير في نعش سقوطها.

٣. جريان حضارة الأمم على سنن الكون في طلب المعايش سبب لقوتها: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [الروم: ٢٣]. وقد سبق في عامل الفطرة، وقيل: خُصَّ قولُه: ﴿ مَنَامُكُم ﴾ بالليل ﴿ وَٱبْتِغَآؤُكُم ﴾ بالنَّهار بالسَّمع؛ لأنَّ أكثرَ الناس مُنسدِحون باللَّيل كالأموات، ومُتردِّدون كالبهائم بالنَّهار، لا يدرون فِيمَ هم؟ ولِمَ ذلك؟ لكن مَن ألقى السَّمع وهو شهيد يتنبَّه لواعظ الله ويُصغي إليه[1].

٤. الإشارة إلى بناء حضارة الأمم على الإدارة الاقتصادية الموافقة لسنة الله تعالى في بسط الرزق وتقتيره، ففي قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ

(١) انظر: حاشية الطيبي على الكشاف (١٢/٢٤٠، ٢٤١).

لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الروم: ٣٧] .

أنكر سبحانه إهمالَ التَّأمُّل في سُنَّته الشَّائعة في النَّاس: مِن لَحَاق الضُّرِّ وانفراجه، ومن قِسمة الحظوظ في الرِّزق بين بَسط وتقتير؛ فإنَّه كثير الوقوع كلَّ حين، فكما أنَّهم لم يقنطوا مِن بسطِ الرِّزق عليهم في حين تَقتيره، فكدحوا في طلب الرِّزق بالأسباب والدُّعاء؛ فكذلك كان حقُّهم أن يتلقَّوا السُّوء النَّادر بمثل ما يتلقَّون به ضيق الرِّزق، فيسعَوا في كشف السَّيِّئة بالتَّوبة، والابتهال إلى الله، وبتعاطي أسباب زوالها مِن الأسباب التي نصَبها الله تعالى(١). وختمت الآية بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ إيذانًا بأنَّ بسط الرِّزق وتقديره بمحض مَشيئته تعالى، وبأن ليس الغِنى بفعل العبد وجهْده، ولا العُدْمُ بعَجْزه وتقاعُده، ولا يعرف ذلك إلَّا مَن آمن بأنَّ ذلك تقديرُ العزيز العليم(٢).

٥. بناء حضارة الأمم على التكافل الاجتماعي القائم على إيتاء الزكوات والصدقات كما في قوله تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴾ [الروم: ٣٩]. فإذا كانت الأمم ترى أن المال هو عصب الحياة، فيتخذون في أسباب نمائه الطرق المشروعة وغير المشروعة، فإن المنظور القرآني يجعل بناء الإنسان هو الغاية، وأما المال فهو وسيلة إليه، وجعل الالتزام بتشريعه في الانفاق والصرف هو السبيل إلى أسرار الانتفاع بالمال ونمائه وبركته، فجاء في هذه السورة التَّرغيبُ والأمر بذلك المال لذوي الحاجة، وصِلة الرَّحم، ورتب على ذلك الفلاح والمضاعفة، وبيّن مَن يجب الإحسان إليه على كلِّ مَن له

(١) انظر: تفسير الزمخشري (٣/٤٨٠)، تفسير ابن عاشور (٢١/١٠١).

(٢) انظر: حاشية الطيبي على الكشاف (١٢/٢٤٠، ٢٤١)، تفسير الألوسي (١١/٤٣).

مال، سواء كان زَكويًّا أو لم يكن، وسواءٌ كان بعد الحَولِ أو قبله؛ لأنَّ المقصود هاهنا الشَّفقة العامَّة[1]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ ﴾ عبَّر عنها بذلك؛ لِيُفيد الطَّهارة والزِّيادة، أي: تُطهِّرون بها أموالَكم مِنَ الشُّبه، وأبدانَكم مِن موادِّ الخبث، وأخلاقَكم مِن الغِلِّ والدَّنَس[2]. وإذا كان النبي ﷺ يقول: «إنَّهُ لا قُدِّست أمَّةٌ لا يأخذُ الضَّعيفُ فيها حقَّهُ غيرَ متَعتَعٍ »[3].

فمفهومه أن الأمة التي تبادر بحق الضعيف إليه أن الله تعالى يقدسها ويرفع شأن حضارتها بين الأمم.

المبحث الثاني: عوامل البناء المتفرعة:

ونعني بذلك أنها متفرعة عن العوامل الرئيسة وداخلة فيها، ولكن أُفرد ذكرها في السورة لأهميتها، ومن ذلك:

أولًا: إقامة الدين:

فجاءت في السورة آيتين آمرتين بذلك: قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾ [الروم: ٣٠]. وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ ﴾ [الروم: ٤٣]، والفاء فصيحة. والتقدير: إذا علمت أحوال الأمم المعرضة عن دلائل الحق فأقم أنت وجهك للدين. وإقامة الوجه: تقويمه وتعديله باتجاهه قبالة نظره غير ملتفت يمينا ولا شمالا. وهو تمثيل لحالة الإقبال على الشيء والتمحض للشغل

(١) انظر: تفسير الرازي (١٠٢/٢٥).

(٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٠١/١٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه وغيره، من حديث أبي سعيد ﷺ، كتاب الصدقات، باب لصاحب الحق سلطان، برقم (٢٤٢٦)، وهو صحيح ورجاله ثقات. انظر: مصباح الزجاجه للبوصيري (٦٨/٣)، صحيح ابن ماجه للألباني (٥٥/٢).

به بحال قصر النظر إلى صوب قبالته غير ملتفت يمنة ولا يسرة[١]. والمعنى: أقبِل بقلبك، وتوجَّه بوجهك، واسْعَ ببدنك؛ لإقامة الدِّين القَيِّم المستقيم؛ فنفِّذْ أوامره ونواهيَه بجدٍّ واجتهاد، وقُم بوظائفه الظَّاهرة والباطنة، وبادرْ زمانك وحياتك وشبابك..[٢] وهذا ما ينبغي أن تقوم عليه الحضارة القوية بقوة ما تستند عليه من الوحي، تُقبل على مبادئها ومكامن قوتها غير ملتفة إلى ثقافات مستوردة، ولا إلى زبالات أفكار وافدة.

ثانيًا: الإنابة والتقوى:

قال سبحانه: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ ﴾ [الروم: ٣١] فمن العوامل الهامة في بناء وجدان المؤمن القائم بدوره الحضاري أن يبقى متصلا بمصدر قوته وهو الله جل وعلا، فيعقد عزمه أن لا يعكر تلك العلاقة بانهماك في المخالفات، وإنما يبقى على حالة من التوقي الدائم من الوقوع فيما يقطع صلته بمصدر قوته، وهذه حقيقة (التقوى)، فإنْ ألمّ بشيء من المخالفات بمقتضى الضعف البشري فسيجد باب (الإنابة) مشرعًا؛ ليبقى على الطريق ويمضي في مشروعه الحضاري، فلا يقطعه اليأس من روح الله تعالى.

فـ﴿ مُنِيبِينَ ﴾ أي: راجعين إلى الله وحده؛ مِن الشِّرك إلى التَّوحيد، ومِن المعصية إلى الطَّاعة، ومِن البِدَع والضَّلالات إلى التَّمسُّك بالشَّرع[٣]، فمهما ندّت بكم المخالفات، وشطّت بكم المعاصي، ونأت بكم الموبقات.. فعليكم بالرجوع، فلا ملجأ من الله إلا إليه. وقوله: ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ أي: خافوا الله

(١) انظر: تفسير ابن عاشور (٨٩/٢١).

(٢) انظر: تفسير السعدي (٦٤٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤٩٧/١٨)، تفسير السمرقندي (١٢/٣)، الوسيط للواحدي (٤٣٤/٣)، تفسير السمعاني (٢١١/٤)، تفسير القرطبي (٣١/١٤)، تفسير ابن كثير (٣١٦/٦).

وراقبوه، أن تفرّطوا في طاعته، وتركبوا معصيته، فالخوف والمراقبة هما من تصنعان حالة التوقي الدائم.

ثالثًا: إقامة الصلاة:

ولا تقوم لأمة حضارة لا تقيم الصلاة، وتقطع صلتها بالمولى جل في علاه، فهي عمود فسطاط الإسلام، وهي الملة التي تنتظم بها حياة الأمم، وقد أخرج ابن جرير بسنده أن عمر مرّ بمعاذ بن جبل ﷺ فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهنّ المنجيات: الإخلاص، وهو الفطرة ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾، والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهي العصمة. فقال عمر: صدقت(١).

رابعًا: ترك الشرك:

وهو وإن كان داخلًا في تقرير الإيمان والتوحيد الذي تنوعت أساليب تقريره وتعددت في هذه السورة، إلا أنه جاء التنصيص على النهي عنه ومنابذة أهله في هذه السورة: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الروم: ٣١] مبالغةً في التحذير منه ومن أهله؛ ولأنه ناقض لأصل الدين محبط لكل عمل. وهو نهي عامٌّ في كُلِّ شِرك؛ سواءٌ كان بعبادة صنم أو نار أو غيرهما، أو بالتَّدينُّن بما يخالف النُّصوص مِن أقوال الأحبار والرُّهبان وغير ذلك(٢). ويلحق بذلك:

خامسًا: التخلق بالأخلاق الحسنة، وتجنب رذائل الأخلاق:

وهذا وإن كان داخلًا في جملة إقامة الدين، إلا أن في السورة إشارة إلى التحامي من رذائل الأخلاق في قوله سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [الروم: ٥٥] والمعنى: أنَّ ذلك خُلُقٌ تَخَلَّقوا به وصار لهم كالسَّجيَّة في حياتهم

(١) تفسير الطبري (٢٠/٩٨).

(٢) انظر: نظم الدرر (١٥/٩٠).

الدُّنيا، حتَّى إذا أعاد الله إليهم أرواحهم صَدَر عنهم ما كانوا تَخَلَّقوا به، وفي هذا الخبر أدبٌ عظيمٌ للمسلمين: أن يَتحامَوُا الرَّذائل والكبائر في الحياة الدُّنيا؛ خشيةَ أن تصير لهم خُلُقًا، فيُحشروا عليها(١). وكذلك الأمر بالصبر في آخر آية من السورة: ﴿ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [الروم: ٦٠] فمن تخلق بخلق الصبر ووفى الصبر حقه وتيقن أن وعد الله حق، قام بحق الله تعالى وحقوق أمته، وقامت على سواعده الإمامة في الدين. ومن الصبر لزوم ثغور العمل لإقامة أمر الأمة، وانتظار وعد الله بالنصر الذي بشر به في هذه السورة بروح متفائلة مستبشرة لا يثنيها استخفاف الذين لا يوقنون.

ومن تعاجيب التباشير في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] أن الله تعالى ذكر هذه الآية بين آيتين يظهر للناظر أول وهلة أن لا علاقة لها بسياقهما، فالآية التي قبلها: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [الروم: ٤٦]، والآية التي بعدها: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الروم: ٤٨]، ولكن يربط بين الآيتين السابقة واللاحقة التبشير بالرياح واستبشار الناس بعد نزول الغيث ﴿ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴾ [الروم: ٤٩]. والذي يظهر أن إدخال قوله سبحانه: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧] بين آيتي التبشير بالرياح والغيث ونزوله بعد إياس الناس قد لا يخلو من إشارة إلى التبشير بالنصر، وأنه آتٍ لا محالة ولكن بعد جريان سنته في إتيانه، فلا يأتي إلا بعد

(١) انظر: تفسير ابن عاشور (٢١/١٣٠).

الاستيئاس منه ابتلاءً وتمحيصًا واختبارًا لصبر أوليائه على موعود الله تعالى، نظير ذلك في كتاب الله تعالى قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف: ١١٠]، والله تعالى أعلم.

ولا ريب أن من عوامل بناء حضارة الأمم أن تقوم على سواعد ﴿ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]. وقد أشارت هذه السورة للصبر واليقين في آخر آية منها: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ **فكُن صابرًا على دينه، موقنًا بمجيء نصره.**

الفصل الثاني: عوامل السقوط:

استُفتحت سورة الروم بذكر حضارتين كانتا آيلتين للسقوط: الفرس والروم، فلم يمض الليل والنهار حتى فتح المسلمون ديارهم بنور الله تعالى، وقصة تغالب الروم والفرس تحمل في ثناياها عوامل سقوطهما(١)، واستنكر سبحانه في هذه السورة عدم الاعتبار بما حلّ بمن غبر من المثلات والعبر فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الروم: ٩-١٠].

ودعا سبحانه في موضع آخر منها للسير في الأرض والنظر كيف سقطت حضارات الأمم، وكيف حلت بهم العقوبات، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٤٢].

ولا ريب أن ما ذُكر في السورة من عوامل بناء الأمم والحضارات تدل بمفهوم مخالفتها على عوامل السقوط لمن لم يأخذ بها، وبضدها تتبين الأشياء، ولكن ثمة تنصيص في السورة على بعض عوامل السقوط، وإشارات إلى شيء منها، ولذا سنكتفي بحديث مقتضب عنها اكتفاءً بما أغنى في عوامل البناء.

المبحث الأول: عوامل السقوط الرئيسة:

أولًا: الكفر والتكذيب والشرك:

أما الكفر فقال عنه سبحانه: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم: ٨]، وقال سبحانه: ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ [الروم: ٣٤]،

(١) انظر رواية عطاء الخرساني لقصة شهربراز الفارسي في تفسير الطبري (٢٠/٧٠)، وكيف أنه تحالف مع هرقل لإسقاط كسرى بسبب الخلاف على الملك!

وقال سبحانه: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ [الروم: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الروم: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿ لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴾ [الروم: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ [الروم: ٥٨].

وأما التكذيب فقال عنه سبحانه: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ١٠].

وجُمع الكفر والتكذيب في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم: ١٦].

وأما الشرك فقال عنه سبحانه: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الروم: ١٣]، وقال سبحانه: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ [الروم: ٤٢].

فهذا الحضور الكثيف لهذا السبب المخيف يدوي في جنبات السورة الكريمة بأنه ليس شيء مثل الشرك والكفر والتكذيب يؤذن بخراب الديار بعد عمارها،

ويسقط الأمم بعد قيامها، فيا لله كم من أمة كفرت وأشركت وكذبت فبادت وهلكت وتهاوت عروشها وهوت في مكان سحيق، وليت الأمر بقي على هلاك دنيوي يُفني ويُنزل الأمم من قصورها ويُرقدها في مظلمات قبورها لكان الأمر هينًا؛ ولكن هيهات، فقد توعدهم الحكم العدل سبحانه في هذه السورة بعد هذه العاقبة في الدنيا بالأسوأ في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾[1] [الروم: ١٠]. عياذًا بوجه الله تعالى.

ثانيًا: الظُلم:

وأول صور ظلم الأمم الساقطة والحضارات البائدة هو ظلمهم لأنفسهم بالكفر والشرك والتكذيب فاستوجبوا بذلك أليم العقاب ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩]، وظلموا أنفسهم أيضًا بالإعراض عن الحق واتباع الهوى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [الروم: ٢٩].

وأما ظلم الأمم باستبدادها واعتدائها على المستضعفين ففي آخر السورة بيان لمآل الظالمين في الآخرة: ﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴾ [الروم: ٥٧] فالتَّعبير عنهم بـ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار؛ لِغرض التَّسجيل عليهم بوصف الظُّلم، وهو الإشراك بالله؛ لأنَّه جامعٌ لفنون الظُّلم؛ ففيه الاعتداء على حقِّ الله، وظلمُ المشرك نفسَه بتعريضها للعذاب، وظلمهم الرَّسولَ ﷺ بالتَّكذيب، وظلمهم المُؤمنين

(١) قال الزمخشري في الكشاف: "والسُّوأى تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أنّ الحسنى تأنيث الأحسن. والمعنى: أنهم عوقبوا في الدنيا بالدمار، ثم كانت عاقبتهم سوأى إلا أنه وضع المظهر موضع المضمر، أى: العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة، وهي جهنم التي أعدّت للكافرين" (٣/٤٧٠).

بالاعتداء على أموالهم وأبشارهم[١].

ثالثًا: الفساد:

فبين سبحانه في هذ السورة أن من عوامل الهلاك للحرث والنسل وتهاوي حضارات الأمم: إفساد بني آدم ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]، والظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه؛ سواء كان راجعا إلى أفعال بني آدم من معاصيهم، واقترافهم السيئات، وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أو راجعا إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم؛ كالقحط، وكثرة الخوف، ووقوع الطواعين، ونقصان الزرائع، ونقصان الثمار[٢]، فمن آثار الذنوب والمعاصي أنها تحدث في الأرض أنواعا من الفساد؛ في المياه والهواء، والزرع والثمار والمساكن[٣]، فالفساد سببه أعمال بني آدم[٤].

المبحث الثاني: عوامل السقوط المتفرعة:

أولًا: الاستقواء بغير الله:

فاستمداد أمة لقوتها من غير مُمِدّها القوي المتين سبحانه لا يلبث أن يُسقطها صريعةً في أوحال الذل. فأشارت السورة الكريمة أن الاستقواء بالمادة أو الحذق في الصناعة وإثارة الأرض وعمرانها مع نسيان أمر الله وتكذيب آياته ورسله يدع الديار بلاقع ويهوي بالأمم في الخراب، قال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ

(١) انظر: تفسير ابن عاشور (١٣٢/٢١). وانظر الفصل الذي عقده ابن خلدون في مقدمته (٤٩١/١) بعنوان: "في أن الظلم مؤذن بخراب العمران".

(٢) انظر: تفسير الشوكاني (٢٦٣/٤)، تفسير ابن عثيمين- سورة الروم (٢٥٣).

(٣) انظر: الجواب الكافي لابن القيم (٦٤).

(٤) انظر: تفسير ابن عثيمين – سورة الروم (٢٥٧).

يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩]، وكذا الاستقواء بالأعوان والشركاء في محاربة دين الله وحملته المصلحين يؤول بهم إلى ضعف مهين وحين يقفوا أمام القوي المتين فسيُلقي بعضهم على بعضهم التبرؤ، ويكفر بعضهم ببعض ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ [الروم: ١٢-١٣] فمما قيل في معنى ﴿ شُرَكَآئِهِمۡ ﴾ أي: الذين كانوا يتبعونهم على ما دعوهم إليه من الضلالة، فيشاركونهم في الكفر بالله، والمعاونة على أذى رسله(١).

ثانيًا: اتباع الهوى:

قال سبحانه: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الروم: ٢٩]، فكيف لمتبع الهوى أن يقيم حضارة أو يقود أمة؟ فمتبع الهوى ليس أهلا أن يطاع، ولا أن يكون إمامًا ولا متبوعًا؛ فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة، ونهى عن طاعته؛ أما عزله فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: لا ينال عهدي بالإمامة ظالما، وكل من اتبع هواه فهو ظالم، كما قال الله تعالى في هذه السورة: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الروم: ٢٩]. وأما النهي عن طاعته فلقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ [الكهف: ٢٨](٢)، وقد أوصى الله داود عليه

(١) وممن ذهب إلى هذا المعنى: الطبري، ومكي. انظر: تفسير الطبري (٤٦٩/١٨)، الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي (٥٦٦٥/٩).

(٢) انظر: روضة المحبين لابن القيم (٤٧٥).

السلام لقيادة أمته وإقامة حضارته: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

ثالثًا: التفرق والتحزب في الدين:

في قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٢]. فلا تقوم لأمة قائمة إن دب فيها الاختلاف في الدين، ولا تدوم حضارة مزقت أوصالها التحزبات، فالتفرق والاختلاف يوجب الشرك، وينافي حقيقة التوحيد الذي هو إخلاص الدين كله لله(١)، فالتوحيد أبدًا قرين الاجتماع؛ لأن الاجتماع فيه الوحدة. والتفرق لا بد فيه من التثنية والتعدد، كما أن الإشراك مقرون بالتفرق(٢).

رابعًا: أكل الربا:

أكل الربا من أبشع صور ظلم الأمم في أموالهم، ولا تقوم حضارة مرضية عند من في السماء على أرضٍ تَنْبُتُ بالسُّحت ومحقٍ للآكلين، قال سبحانه في هذه السورة: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ ﴾ [الروم: ٣٩](٣)، فمهما ابتغت أمةٌ نماءً وزكاءً في أموالها والربا ينخر في معاملاتها إلا ذاقت من أمرها الوبال، وسقطت في سفال، وصارت إلى زوال.

---

(١) انظر: قاعدة في المحبة لابن تيمية (٤٣).

(٢) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (٢٢٤/٤).

(٣) مما قيل في معنى هذه الآيةُ أنها كقولِه تعالى: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ [البقرة: ٢٧٦] سواء بسواء، وأنَّ المراد: ما أعطَيْتم من أموالكم على وجه الرِّبا فلا يزكو عند الله. وممَّن اختاره في الجملةِ: الزمخشريُّ، والنسفيُّ، وابنُ جُزَي، والقاسمي، وابن عاشور. انظر: تفسير الزمخشري (٤٨١/٣)، تفسير النسفي (٧٠٢/٢)، تفسير ابن جزي (١٣٤/٢)، تفسير القاسمي (١٦/٨)، تفسير ابن عاشور (١٠٥/٢١).

الخاتمة

الحمد لله.. أما بعد، فإن القرآن العظيم كله قد تناول في مثانيه حديثًا متشابهًا في قضية عوامل قيام حضارات الأمم وسقوطها في غير ما آية وسورة، إلا أن الحديث عن ذلك في (سورة الروم) كان لافتًا وبارزًا بصورة مكتملة الجوانب إلى حد كبير، ومما يلفتني في خواتيم هذه السورة قضيتان:

أولهما: قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤] هل يمكن أن نلمح في سياق الإطار العام الذي تتحدث عنه السورة الكريمة وفي ضمن تقرير قدر الله الكوني أن في هذه الآية ما يشير من تحت ستر رقيق إلى أن للأمم كما للأفراد أعمارًا وآجالًا؟ وأن فيها ما يشير إلى مسيرة الدول والحضارات حين تنشأ من ضعف ثم تشتد قوتها عند أخذها بأسباب القوة ثم تضعف عند أخذها بأسباب الانهيار والسقوط؟[1] الله سبحانه أعلم.

الثانية: في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم: ٥٥]، فهذه الآية مع ما في لفظها من جمالية التجنيس[2]، وتصريحها بعمر الدنيا في ميزان الآخرة، ومع ما فيها من تحسيرٍ للمجرمين ببيع

---

(١) وقد يشبه هذه الفكرة ما عقده ابن خلدون فصلًا في مقدمته بعنوان: "فصل في أن الدول لها أعمار طبيعية كما للأشخاص" (٢٩٧/١)، وقد ذكر فيه ما قد لا يُوافق عليه. انظر: أخطاء ابن خلدون في كتابه المقدمة (٧١).

(٢) التجنيس مصطلح بلاغي ويعني: اشتمال الكلام على كلمتين فصاعدًا تتساوى فيها حروف ألفاظها في تركيبها ووزنها وتختلف في معناها، كلفظ (ساعة) في الآية، فاللفظ واحد والمعنى مختلف ففي الأولى: القيامة، وفي الثانية: المدة من الزمن، ولا أثر للام التعريف في عدم التساوي. انظر: المثل السائر لابن الأثير (٢٦٣/١). وقال: "وليس في القرآن الكريم سوى هذه الآية فاعرفها".

آخرةٍ سرمديةٍ باقيةٍ بساعةٍ مرّت عابرةً وذهبت فانية، فلا تخلو للمتأمل من إشارة إلى أن فيها حثًّا وتحضيضًا للمؤمن الذي آتاه الله ﴿ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ [الروم: ٥٦] أن يدأب ويعمل لإقامة حضارته الممتدة إلى الآخرة دون كلل ولا ملل، متصلبًا في دينه، متسلحًا بشجاعة روحه المنبثقة من عقيدته، فالشجاعة صبر ﴿سَاعَةٍ﴾، وإذا كان الأمر ليس إلا ساعة ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠][1].

هذا، وفي ختام هذا البحث الذي دار حول ما اشتملت عليه سورة الروم من قضايا قيام الأمم وسقوطها، وفيما تقرر من مضامينه: يمكن أن نستنتج أنها بمثابة الاحتساب على الأمم والدعوة لأهل الأرض قاطبةً لإقامة حضاراتهم ودولهم على المنهاج الحق الذي دعت إليه الهداية القرآنية، ولكأن مطلع هذه السورة في الحديث عن الروم وفارس يذكرنا بالتأسي بنبينا ﷺ حين كاتب ملوك الأرض وبعث لهم البعوث تدعوهم إلى إقامة أمر الله فيمن تحت أيديهم مع الإبقاء على ملكهم إن أطاعوا، مما يدل على أن السعي إلى العلو في الأرض والهيمنة وبسط النفوذ ليس مقصدًا بذاته في دين الله تعالى، كما تتغالب عليه الأمم المتهالكة، وإنما هو وسيلة لإقامة أمر الله تعالى.

والحمد لله أولاً وآخرًا وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) قال العز بن عبد السلام في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠] "فيه الحثُّ على التَّصلُّبِ في الدِّينِ". شجرة المعارف والأحوال (٦٣).

قائمة المصادر والمراجع

١. **أخطاء المؤرخ ابن خلدون في كتابه المقدمة**، لخالد كبير علال، الناشر: دار الإمام مالك، البليدة، الجزائر، ط١، ٢٠٠٥.

٢. **بيان تلبيس الجهمية**، لتقي الدين ابن تيمية (ت: ٧٢٨)، الناشر: مجمع الملك فهد، ط١، ١٤٢٦.

٣. **التحرير والتنوير = تفسير ابن عاشور**، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣)، الناشر: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٤. **تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل**، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي (ت: ٧٤١)، تحقيق: عبد الله الخالدي، الناشر: دار الأرقم، بيروت، ط١، ١٤١٦.

٥. **تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم**، لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٦. **تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، لمحمود بن عمرو الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٧. **تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان**، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ.

٨. **تفسير السمرقندي = بحر العلوم**، لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت: ٣٧٣).

٩. **تفسير السمعاني = تفسير القرآن**، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (ت: ٤٨٩)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٨.

١٠. **تفسير الشوكاني = فتح القدير**، لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت. ط١، ١٤١٤هـ.

١١. **تفسير الطبري = جامع البيان في تأويل القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث

والدراسات الإسلامية بدار هجر، الناشر: دار هجر، ط١، ١٤٢٢.

١٢. **تفسير الطبري = جامع البيان في تأويل القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠.

١٣. **تفسير القرآن الكريم = تفسير ابن عثيمين – سورة الروم**، لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، ط١، ١٤٣٦.

١٤. **تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي (ت: ٧١٠)، تحقيق: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩.

١٥. **تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية**، جمعه: إياد القيسي، الناشر: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٣٢.

١٦. **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، لمحمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ.

١٧. **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، محمد بن أبي بكر ابن قيّم الجوزية، الناشر: دار المعرفة، ١٤١٨هـ.

١٨. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي (ت: ١٢٧٠)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥.

١٩. **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت: ٧٥١)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣.

٢٠. **زاد المسير في علم التفسير**، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢.

٢١. **سنن ابن ماجه**، لأبي عبد الله محمد بن يزيد (ماجه) القزويني، (ت: ٢٧٣)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

٢٢. **شجرة المعارف والأحوال وصالح الأعمال**، لعز الدين بن عبد السلام السلمي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

٢٣. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: ٣٩٣)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧.

٢٤. **صحيح البخاري**، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦)، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢.

٢٥. **صحيح وضعيف سنن ابن ماجة**، لمحمد ناصر الدين الألباني، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية، من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

٢٦. **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب = حاشية الطيبي على الكشاف**، لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣)، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: جميل بني عطا، المشرف على الإخراج العلمي للكتاب: محمد عبد الرحيم، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ١٤٣٤.

٢٧. **قاعدة في المحبة**، لتقي الدين ابن تيمية (ت: ٧٢٨)، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر.

٢٨. **كتاب العين**، المنسوب لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠)، المحقق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٢٩. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله محمد (ت: ٦٣٧)، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر، القاهرة.

٣٠. **محاسن التأويل**، لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٣١. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز = تفسير ابن عطية**، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية (ت: ٥٤٢)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤٢٢.

٣٢. **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي (ت: ٨٤٠)، المحقق: محمد المنتقى الكشناوي، الناشر: دار العربية، بيروت، ط٢، ١٤٠٣.

٣٣. **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: ٣٩٥)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩.

٣٤. **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**، لأبي عبد الله فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت: ٦٠٦)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠.

٣٥. **المقدمة لابن خلدون = كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تأليف ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت: ٨٠٨)، المحقق: إبراهيم شبوح وإحسان عباس، الناشر: دار القيروان للنشر، تونس، ط١، ٢٠٠٦.

٣٦. **نَظْم الدُّرر في تناسُب الآيات والسُّور**، لإبراهيم بن عمر البقاعي. الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٣٧. **الهداية إلى بلوغ النهاية**، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت: ٤٣٧)، الناشر: مجموعة جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩.

٣٨. **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي (ت: ٤٦٨)، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥.